الثقافة الجماهيرية في ضوء أفكار مالك بن نبي وعلي عزت بيغوفيتش

Mass culture in light of the ideas of Malek Bennabi and Ali Izetbegovic

احسن خشة*

[1] جامعة 08 ماي 45 . قالمة (الجزائر)

الملخص:

تقدم هذه الورقة البحثية قراءة استقرائية inductive في العلاقة الضمنية بين أفكار مالك بن نبي، وتجليات الثقافة الجماهيرية عبر وسائط الاعلام المختلفة والتي كثيرا ما تثير استياء النقاد، و تحط من الذوق العام ، وتغلب المصلحة الربحية على حساب الارتقاء بالمستوى الثقافي العام.

كما تفكك من جهة ثانية دور الاعلام وتأثيرات الثقافة الجماهيرية في ضوء طرح المفكر البوسني "علي عزت بيغوفيتش "(1925-2003) ، والذي عايش غزو الثقافة الجماهيرية للفضاء العام، وتابع تغلغلها الى الحيز الشخصي وهيمنتها على المجال النفسي والاجتماعي.

تتمثل أهمية هذا الموضوع في كونها تجمع بين طرحين متقابلين، أولهما يعكس وجهة النظر 'الشرقية' ازاء اشكالية "الثقافة الجماهيرية " في بعدها الحضاري والتي تضيف عبئا جديدا على الأزمة الثقافية السائدة في مجتمعاتنا العربية والاسلامية. وثانيهما يعكس وجهة النظر من داخل البيئة 'الغربية' التي تميط اللثام عن البعد المعرفي والوظيفي الكامن خلف نشر الثقافة الجماهيرية على نطاق واسع.

الكلمات المفتاحية: الثقافة الجماهيرية، مالك بن بني ، علي عزت بيغوفيتش.

Abstract: On the one hand, this paper presents an inductive reading in the implicit relationship between the ideas of Malik bin Nabi and the manifestations of mass culture through various media, which often arouse critics' dissatisfaction, degrade taste, and profit interest prevails at the expense of raising the general cultural level.

On the other hand, this paper presents an analytical reading of the role of the media and the effects of mass culture in the light of the proposition of the Bosnian thinker Ali Izetbegovic (1925-2003), who experienced the invasion of mass culture into the public space, and followed its penetration into the personal space and its dominance in the psychological and social sphere.

The importance of this topic is that it combines two opposite ideas, the first of which reflects the 'Eastern' point of view on the problem of "mass culture" in its civilized dimension, which adds a new burden to the cultural crisis prevailing in our Arab and Islamic societies. The second reflects the point of view from within the 'Western' environment that reveals the cognitive and functional dimension underlying the dissemination of mass culture on a large scale.

Keywords: mass culture , Malik bin Nabi , Ali Izetbegovich

* احسن خشة

المقدمة

تحتل وسائط الإعلام المختلفة حيزا معتبرا من أوقات الناس ، وتستقطب اهتمام المؤسسات المختلفة التي تبحث عن منصة ترويج لخطاباتها وتهيئة الجماهير للتفاعل الايجابي مع مقترحاتها وعروضها.

وبفعل التداخل الموجود بين منظومة الإعلام وباقي منظومات المجتمع السياسية والاقتصادية وغيرها، فان غموضا كبيرا يكتنف الممارسة الاعلامية، بحيث تحجب الحقائق عن المتلقي، وتستبعد القضايا ذات الأولوية، وتغيب الحبكة التي تربط بين الوقائع ، مما يؤدي إلى ضياع المتلقي وسط ركام الأخبار المتوالية، ويصبح الاقتراب من وسائل الاعلام الرائجة وسيلة للابتعاد عن الاعلام الحقيقي.

تتباين القراءة النقدية لأداء وسائل الاعلام عامة بين المفكرين والباحثين، وتتأرجح أحيانا بين التفاؤل والتشاؤم، وإذا كانت آراء الباحثين الأكاديميين مهمة في إبراز أدوار وتأثيرات وسائل الإعلام بصرف النظر عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي توجد فيه، فان الالتفات إلى إسهامات المفكرين الذين يقدمون قراءات نقدية للواقع الثقافي والحضاري السائد في المنطقة العربية والإسلامية يعد ضرورة ملحة، في تشخيص مكامن الخلل وإبراز معالم إصلاح الواقع.

لا شك أن وسائل الإعلام –كأحد العناصر الصلبة في الحفاظ على استمرارية السلطة –تعد شريكا رئيسيا في إعادة إنتاج الوضع القائم واستمراره بكيفية تحافظ على امتيازات ومصالح جهات نافذة في إدارة الشأن العام.

واذا اعتبرنا أن الخلل بشكل مجمل هو ثقافي بالدرجة الأولى، فان ارتداداته تمس قطاعات متعددة: سياسية، واقتصادية وتعليمية واجتماعية وإعلامية.

تركز هذه الورقة على الشأن الإعلامي، باعتبار أن وسائل الإعلام تعد نافذة واسعة لبث الثقافات المختلفة ،كما وتمتد بشكل واسع في فراغنا وتشغل حيزا معتبرا من زمننا الاجتماعي، وبالتالي فان مساءلة الدور الثقافي لهذه الوسائل يعتبر ضروريا .

واعتمادنا بشكل رئيسي على كتابات مفكرين بارزين في المنطقة العربية والإسلامية، وهما المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، والمفكر البوسني "علي عزت بيغوفيتش".

ما من شك في أن فكر مالك بن نبي (1905-1973م) سابق لعصره، فلا تزال أفكاره مناسبة لتشخيص أزمتنا الثقافية والحضارية، وهي ملائمة في توضيح معالم الطريق التي تقودنا الى تجسيد التغيير الثقافي المطلوب.

تقدم هذه الورقة من جهة أولى قراءة استقرائية inductive في العلاقة الضمنية بين أفكار مالك بن نبي وتجليات الثقافة الجماهيرية عبر وسائط الاعلام المختلفة والتي كثيرا ما تثير استياء النقاد، و تحط من الذوق، وتغلب المصلحة الربحية على حساب الارتقاء بالمستوى الثقافي العام.

كما تقدم من جهة ثانية قراءة تحليلية لدور الإعلام وتأثيرات الثقافة الجماهيرية في ضوء طرح المفكر البوسني علي عزت بيغوفيتش (1925-2003) ، والذي عايش غزو الثقافة الجماهيرية للفضاء العام، وتابع تغلغلها إلى الحيز الشخصي وهيمنتها على المجال النفسي والاجتماعي. (بيغوفيتش، 2019)

تتمثل أهمية هذا الموضوع في كونها تجمع بين طرحين متقابلين، أولهما يعكس وجهة النظر 'الشرقية' إزاء إشكالية "الثقافة الجماهيرية " في بعدها الحضاري والتي تضيف عبئا جديدا على الأزمة الثقافية السائدة في مجتمعاتنا العربية والاسلامية. وثانيهما يعكس وجهة النظر من داخل البيئة 'الغربية' التي تميط اللثام عن البعد المعرفي والوظيفي الكامن خلف نشر الثقافة الجماهيرية على نطاق واسع.

1. الثقافة الجماهيرية في ضوء أفكار مالك بن نبي

1.1 الثقافة بين " ماهو كائن" و "ما يجب أن يكون"

تقترح العديد من التعاريف الأكاديمية المتداولة لمفهوم الثقافة مجموعة من العناصر والقضايا والأهداف بطريقة تركز على "ماهو كائن" في ثقافة معينة بطريقة وصفية قد يفهم منها أن كل الثقافات متشابهة وتحتفظ بخصوصيات تميزها عن غيرها. لكن هذا الطرح لا يساعدنا في فهم لماذا تتقدم مجتمعات معينة، وتتخلف أخرى رغم وجود مقومات أفضل للتقدم؟

يعتمد "مالك بن نبي" في تبيانه لعوامل السقوط والنهوض الحضاريين على أسلوب المقارنات بين الثقافة المحلية السائدة عندنا، والثقافات الأخرى الموجودة عند غيرنا، وفي ذلك تمييز بين الثقافات الضعيفة والثقافات القوية، ولذلك يصنف طرحه المقارن ضمن " ما يجب أن تكون" عليه ثقافتنا بناء على قيمنا الأصيلة ورصيدنا التاريخي والحضاري المشرق.

يعرف مالك بن نبي الثقافة على أنها: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه " (نبي ، 2015، صفحة 74)

وفي هذا التعريف إشارة ضمنية على المرحلة التي يجب التركيز عليها في بناء ثقافة جديدة تكفل تحقيق الانسجام بين عالم الأشخاص تمهيدا لتحقيق نهضة حضارية، ولا يتأتى ذلك إلا بتفعيل إرادة صادقة تتبناها قيادة مجتمع تفوض رؤيتها لمؤسسات وهيئات تضطلع بهذا الدور بمرافقة ميدانية حريصة على تحقيق الجودة والفعالية المطلوبة.

ولاشك في أن المؤسسة التربوية والمؤسسة الإعلامية مؤهلتان بقوة ،للعب هذا الدور المتوقع بناء على اعتبارات متعددة، فكلاهما تستقطبان شرائح اجتماعية واسعة، وتستهلكان أوقات معتبرة من أعمارنا، وتستنزفان الكثير من

اهتماماتنا، إضافة إلى الدور الذي يقومان به ثقافيا إما ايجابا أو سلبا.

لقد وضع "مالك بن نبي" يده على الجرح ، وشخص موضع الداء الذي يعيد إنتاج الرداءة بأشكال متنوعة في جميع المرافق والقطاعات، واختصر المشهد كله في عبارة واحدة مؤداها" أن العلم الذي نقدمه لأبنائنا في المدارس والجامعات لا يؤدي وظيفة الثقافة"، بمعنى أنه لا يتوافق مع مقتضيات صياغة البعد الثقافي لأبنائنا لغويا، أخلاقيا،اجتماعيا، جماليا وإبداعيا. وإذا كان الفضاء التعليمي يشكل المنبع الأساسي للقصور الثقافي ، فهذا يعني أن المصدر الأول الذي يشكل العقول ويهذب النفوس يحوي خللا كبيرا، مما يذكرنا بأهمية مراجعته مراجعة شاملة على غرار ما حدث في تقرير " أمة في خطر " .

ولو قدر مالك بن نبي مواكبة ما هو حاصل ضمن ما يسمى العولمة الإعلامية والاتصالية من تعدد للوسائل واستحواذها على المجال الاجتماعي والنفسي للأفراد بشكل غير مسبوق، لقال: " ان المحتوى الذي يقدم لأبنائنا عبر وسائط الإعلام المختلفة لا يؤدي وظيفة الثقافة". بمعنى أنه لا يرتقي بالأخلاق ولا يوثق العلاقات ولا يشيع الآداب ولا ينشر الحس الجمالي والإبداعي بين الأفراد المتلقين، وكأنه موجه بقصدية راسخة إلى تحطيم ما تبقى من البناء الثقافي المتوارث وإضافة النفايات الثقافية المستوردة لتقوم بدور المزاحمة والتشكيك والإلهاء وصولا إلى تحقيق التغيير الثقافي المرغوب.

2.1 البعد الوظيفي في الثقافي:

يقول مالك بن نبي : ".. والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته، ويحمل أفكار (الصفوة) كما يحمل أفكار (العامة) وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة"" (نبي، 2015، صفحة 75)

إن تشبيه الثقافة بالدم يحتمل دلالات إيجابية وسلبية في آن واحد، إيجابية من ناحية أولى بحيث إذا تمت تغذيته بشكل سليم أدى دورا فاعلا في جسد الأمة في مدها بما تحتاجه من هواء وغذاء انتقاه بعناية من البيئة المناسبة التي اختارها لمعاشه. فمثلا يمكن أن تغرس لدى الأطفال قيما أخلاقية فاضلة عن الصدق والأمانة والإيثار والشجاعة ونحو ذلك بطريقة غير مقصودة، عندما تضمنها في مقرر دراسي أو برنامج إعلامي، فيكتسبه الأطفال وينتفعون به، ويعم نفعه على المجتمع بعد ذلك.

ومن ناحية أخرى فان الدم قد يؤدي وظيفة سلبية اذا تم تكدير صفوه بالشوائب أو السموم، فينقلها في شتى الاتجاهات، وهنا قد يتسبب في إتلاف خلايا كثيرة من جسد الأمة، فيتعطل أداؤها، وتشل قدراتها واستعداداتها، وتفسد أذواقها، وينحط الأدب في معاملاتها، وتصبح عالة على غيرها من الأمم، عندما تفتقد الصلات وتضيع المبررات.

وضمن السياق نفسه يشير المفكر الجزائري مالك بن نبي إلى تأثيرات من الثقافة في كونها "تبسط بين الأفراد شبكة علاقات اجتماعية معينة تضمن للفرد عناية ورعاية المجتمع من جانب، ومن جانب آخر تضمن المجتمع من انحراف الفرد ونشوزه"

ويضيف الحقيقة أننا نواجه فقدان المبررات في مجتمعنا...وهذا معناه أن الصلات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع إما ضعيفة أو مفقودة، لأن مجموعة أفراد، وان كانت تتعايش في مدينة أو بلد واحد، لا يعني أنها تكون مجتمعا.

3.1 الثقافة الجماهيرية وتفكيك النسيج الاجتماعي

يؤكد مالك بن نبي في أكثر من موضع على أهمية الترابط والوحدة والانسجام الذي تبتغي الثقافة تحقيقه بين الأفراد في المجتمع الواحد، ولا ريب في أن العامل الأخلاقي يوفر المبررات الأساسية التي تؤطر التفاعل الاجتماعي وتوجهه في مسار موحد، إن النموذج التاريخي المرجعي الذي يقدمه مالك بن نبي لهو دليل على وظيفة التضامن العضوي الذي تسهم فيه الثقافة بفعالية هو "نموذج المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين " في المدينة المنورة قبل 14 قرنا ، وقبله " نموذج المؤاخاة بين الأوس والخزرج " الذين شكلوا إطارا اجتماعيا موحدا ممثلا في " الأنصار"، يعبر عن هذه المخرجات الاجتماعية ويجسدها عمليا الحديث النبوي: عن النعمان بن بشير -ﷺ- مرفوعاً: «مَثَلُ المؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»."

إن المعاني التي يشير اليها طرح "مالك بن نبي" لوظيفة الثقافة، نجد لها أساسا من الناحية البيولوجية أثبتها العلم الحديث، بحيث أن التماسك الاجتماعي هو نتاج لإحساس الفرد بالاحترام والتقدير والمحبة تجاه غيره من أفراد المجتمع الأمر الذي يحدث تأثيرا عجيبا على مستوى خلايا الفرد، مما ينعكس على فاعليته السلوكية، وذلك على عكس إحساس الفرد بالكراهية تجاه غيره.

ولعل هذا التشكيل المجتمعي الفريد تاريخيا، من حيث طرق تشكيله هو الذي مهد الطريق لتحقيق الفعالية التطبيقية في الواقع، بحيث انعكس على تلبية الحاجات والتمكن من الازدهار ونشر الإشعاع الحضاري في كل الأمصار المتاحة،وفقا للظروف الموجودة والأعراف السائدة في ذلك الزمان.

ونظرا للدور الذي تلعبه وسائط الإعلام ثقافيا، خاصة مع بروز ما يصطلح عليه " الثقافة الجماهيرية"، ورغم أن بن نبي لم يواكب التطورات الحاصلة فيها مثلما نعرف اليوم، إلا أن كتاباته تضمنت إشارات تحمل دلالات عميقة حول البون الشاسع بين ماهو كائن إعلاميا، وما يفترض أن يكون اعلاميا، ومن ذلك انتقاده للأداء الاعلامي، والمصري منه تحديدا،وهو ما ينسحب كذلك على المشهد الإعلامي العربي عموما ، يقول مالك بن نبي: إن الموسيقى المصرية ليست فنا متصلا بقيم أو بأشياء، بل هي فن يتصل بالعدم، إلا في بعض الأحوال الاستثنائية في الظروف الأخيرة". ويضيف:

وهذا الفيلم المصري...ماذا أفادنا؟ وماذا اقترح علينا؟ أنا لا أريد أن أعتقد بأن الشعب المصري قد تجرد من حاسة التفرقة بين الجد والهزل، فكيف تنشأ فيه هذه المهازل ؟ أو هذه الأفلام (نبي، 2015، صفحة 137)

من الواضح أن اعتراض مالك بن نبي على الموسيقى والأفلام المصرية مرده الى القيم السلبية التي تتضمنهما والممنوعات الثقافية التي تروج لهما –على استثناءات قليلة– ، بطريقة ممنهجة تتستر خلف المبررات الإبداعية والاقتراب من نبض الشارع الحقيقي.

ويبدو أن الجانب النفعي الذي يتوقع تحقيقه للمجتمع يكاد يكون منعدما، وبالتالي يطرح السؤال لماذا يتم تسخير كل هذه الامكانات المادية والبشرية من أجل تحقيق انجاز إعلامي لا طائل من ورائه غير الحط من الذوق العام. إن الإصرار على إعادة إنتاج مثل هذه المحتويات الإعلامية يخدم أجندات خفية لأطراف تريد تحقيق أهداف محددة بطريقة متدرجة.

إن الثقافة العامة السائدة في المجتمع المصري أولا وغيره من المجتمعات العربية لا تتوافق مع هذه " المهازل الإعلامية خاصة وانها مجتمعات لا تزال محافظة على القيم الأسرية والمجتمعية على الرغم من الانتكاسات التي وقعت في هذا المجال أو ذاك.

4.1 الثقافة الجماهيرية ومثالب التعلم بالمشاهدة:

تشير نظرية التعلم بالملاحظة عن طريق المحاكاة التي قدمها "ألبرت باندورا "الى أن للإنسان القدرة على اكتساب التمثيل الرمزي للوقائع الخارجية، وهذا التمثيل الرمزي يتضمن النظم اللغوية والصور الذهنية والرموز غير اللغوية (الحميد، 2019، صفحة 323)

وفي إشارة إلى أهمية النماذج والقدوات التي تركز عليها المناهج التعليمية، والوضع نفسه ينطبق على الفضاء الإعلامي وبحدة أكبر ،خاصة إذا علمنا بأن حجم التعرض لها، يفوق الوقت الذي يخصصه المشاهد للجلوس في قاعات الدرس يقول الأستاذ بن نبي : "إننا نرى أن الفن الجميل دخلا حتى في الصور التي نختار لأطفالنا الصغار في كتبهم المدرسية، فلقد شاهدت صورة في كتاب مدرسي للأطفال يدرس في مصر (قبل الثورة) ويظهر فيه طفل ترافقه أخته، وهما ذاهبان إلى المدرسة ووراءهما خادم يحمل لهما حقيبتهما. فهذه صورة تبعث في نفس الطفل روح الاتكال واحتقار العمل والعاملين، وفي تصور ما يناسب حاجة (الباشوات) الذين كان بيدهم من قبل ناصية الأمر، لا سواد الشعب" (نبي، 2015، صفحة 137)

توظف وسائط الإعلام المختلفة الكثير من الرموز والإشارات التي تدل على معان متعددة تتسرب إلى العقول

والنفوس، و تبلور قيم الامتثال عند المستهدفين لتنفيذ أجندات مختلفة، وينشأ المجتمع الاستهلاكي بالمواصفات المطلوبة لتصريف منتجات الشركات الاقتصادية الكبرى.

وإذا أردنا البحث في العوامل المسببة لهذا الخلل الوظيفي، يجب وضع الغذاء الثقافي الذي يتناوله المتلقي إعلاميا وتعليميا وأدبيا تحت مجهر النقد الثقافي، وهنا ينكشف المستور الذي يسوق النماذج الرديئة والسلوكيات الوضيعة تحت غطاء الجمالية واللمسة الإبداعية والشهرة العالمية.

والسؤال المطروح هنا يتعلق بالكيف؟ بمعنى ماهي الأساليب التي تعتمدها الثقافة الجماهيرية في تكريس وضعية الفرقة بدل الوحدة بين أفراد المجتمع الواحد؟ وذلك انطلاقا مما قدمه الاستاذ بن نبي من أبعاد وظيفية تجسدها الثقافة من ناحية تأليف عالم الأفراد بشكل موحد ومتضامن. يمكن القول بأن الأساليب المعتمد عليها متعددة منها ماهو ظاهر أحيانا، ويبدو ان الكثير منها خفي.

5.1 الثقافة الجماهيرية وترويج القيم السلبية

يشير الاستاذ بن نبي الى أهمية القيم في معرض حديثه عن القيم الدينية التي تقوم عليها بعض المشروعات الاجتماعية والخيرية الغربية، والتي لا تبرز علنيا لأول وهلة. ولعل القراءة النقدية للأبعاد المتخفية وراء المعلن في الثقافة الجماهيرية يقودنا الى وجود قيم مبثوثة في مفاصل البرامج الإعلامية، ومن هذه القيم على سبيل المثال لا الحصر قيمة "المنافسة" التي تتوارى خلف مجالات التعليم والرياضة والسياسة، وامتدت الى المجال الديني وهي تشجع على تقسيم الناس الى فئات متباينة مصطفة وراء هذا الفريق أو ذاك، خاصة وأن هناك غالبا منتصر ومنهزم، الأمر الذي يكرس التعصب والتشرذم، وينمي الأحقاد والضغينة بين الأفراد، لأسباب قد تكون تافهة في معظمها. وللتأكد من الاثار والتداعيات المترتبة على تفعيل ثقافة التنافس في كل مناسبة متاحة، يمكن زيارة ملاعب كرة القدم، وما يخلفه الشحن الاعلامي في نفوس الأنصار من العداوة والبغضاء، والتراشق بالحجارة، وربما توقع ضحايا-بما فيها حالات القتل- للاشتباكات لا تتسع لهم أسرة المستشفيات.

6.1 الثقافة الجماهيرية ومحاصرة اللغة العربية

في حوار تلفزيوني للأستاذ مالك بن نبي ضمن برنامج تلفزيوني " نور على نور " تم بثه على قناة مصرية، ورد على لسان الصحفي أن الأستاذ مالك بن نبي تعلم اللغة العربية وهو في سن الخمسين، مما يدل على المكانة التي تحظى بها هذه اللغة ضمن مشروع النهضة الذي يقترحه من خلال كتاباته .

من المؤكد أن استعمال اللغة العربية في كافة المرافق والفضاءات، يعتبر من العوامل المساهمة في تحقيق الوحدة ضمن القطر الواحد، وبين الأقطار العربية، خاصة وأن دساتير الدول العربية تنص في مادة من موادها، على أن اللغة العربية هي

اللغة الرسمية للدولة.

يبدو أن هناك يدا خفية امتدت خلسة–ولا تزال– في جنح الظلام، ليتحول هذا النص القانوني الى مجرد حبر على ورق، لا يجد سبيلا الى التجسيد الا في حدود ضيقة، مقابل استفحال غريب للعامية في كل المواقع والخطابات، وصارت اللسان الناطق إعلاميا، وفي غالبية الفضائيات، وقد صار لدى كل دولة عربية عاميتها الإعلامية الخاصة بها، وضمن البلد الواحد تنفرد كل منطقة بعامية مميزة لها بمفردات خاصة، وطريقة نطق محددة. صحيح أن هذا الوضع يمثل واقعا اجتماعيا له ملابساته التاريخية، ولكن انتقاله الى المجال الاعلامي كرس ما هو موجود اجتماعيا بطريقة تمييزية، بحيث لم يتم الاكتفاء باستبعاد اللغة العربية الفصحى من غالبية البرامج، بل نجد هيمنة عامية محددة على المحتوى الاعلامي المقدم بحيث يقتصر على العامية التي تستخدم في العاصمة مثلا على حساب عاميات المناطق الأخرى، ربما لكونها تستأثر مثلا بالبرامج الاعلامية التي يتم انتقائها، أو الصحفيين الذين يتم توظيفهم مثلا وهكذا.

انظر مثلا الى العبارة الدعائية " كونكتي والهدرة باطل " والتي تعني تواصل بالشبكة العنكبوتية، والحديث الهاتفي مجاني" . لا تستقيم العبارة الأولى لغويا: فمثلا تتضمن كلمة أجنبية دخيلة، ولا تليق أدبيا لأنها تتضمن كلمة سوقية، وغير مناسبة ثقافيا لأن كلمة "باطل" لا يفهم منها كل الناس في القطر الجزائري معنى " بالمجان" لأن هذه الكلمة الغريبة متداولة لدى سكان الوسط الجزائري دون غيره.

وفي دراسة نبيل الخوري حول " الاعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية " أورد أغنية ترويجية اعتمدتها محطة تلفزيونية لبنانية : " نحنا زغار – رجال كبار – وعد الحلم بعينينا– وقلعة بكرا– حجار حجار– رح نبنيها بايدينا– نحنا جيل LBC–وعا اسما نحنا ربينا– ولبنان لعم يكبر فينا– يا كبار اللي كنتو زغار– صارت لعبتكن أسرار– مش راح نلعب لعبتكن– مش حلوي لعبة الكبار–نحنا صرنا الحكاية– اللي بيحكيها الزمان– نحنا التغيير اللي جاي– بالعالي يرفع لبنان– لو كنا بالعمر زغار–معها منكفي المشوار– نحنا جيل ال 6) "LBC (الخوري، 2005، صفحة 270): لا تحتاج كلمات هذه الأغنية الى تعليق من حيث درجة ابتعادها عن اللغة العربية، ولكن هناك تساؤلات مرتبطة بالأطراف المعنية التي يسرت انتقالها من السياق الشعبي الى السياق الاعلامي الرسمي الذي يحتكم الى تشريعات الدولة ورؤيتها في إدارة الشأن العام لغويا وثقافيا وإعلاميا وسياسيا.

هل تتطلب الدعاية الاشهارية فعلا توظيف هذه التعابير للوصول الى غايتها، اليس من الأفضل استعمال لغة عربية فصيحة تدعم المستوى اللغوي للجمهور المستهدف بدل التورط في هذا الرداءة اللغوية.

7.1 الثقافة الجماهيرية و الازدواجية اللغوية الاعلامية :

يقول الأستاذ بن نبي: ' ففي الجزائر–مثلا–وحتى الجزائر المستقلة، فازدواجية اللغة ليست فقط مجرد مفجر، بل

هي أكثر من ذلك، ديناميت قذف في العالم الثقافي، وإذا كان لم ينسف كل شيء، فان انفجاره أحدث أغرب الانشقاقات" (نبي، مشكلة الافكار، 2015، صفحة 139)

من الواضح أن حضور الازدواجية اللغوية في المجالات الاقتصادية، الاجتماعية، الادارية، سوف يجد تدعيما قويا إذا ما تم تكريسها في المجال التعليمي والإعلامي، وكلاهما يمد الآخر بما يكرس هذا الواقع المزدوج. فالقطاع التعليمي يوفر البيئة الخصبة لنمو هذه الازدواجية–الفقيرة لغويا وبالتالي معرفيا– وأما الازدواجية اللغوية الإعلامية تضفي الشرعية الرسمية والامتداد الشعبي والرسمي للازدواجية في القطاعات المختلفة، بحيث تجد لها أنصارا في كل واد يرفعون لواءها ويدافعون عنها بكل جهد، مع حرصهم الشديد على استبعاد المقارنة مع الثقافات الأخرى التي وقفت سدا منيعا ضد الازدواجية اللغوية

كما يرى مالك بن نبي أن الانشقاق الذي أدخلته ازدواجية اللغة في العالم الثقافي للبلد الاسلامي، ليس فقط ذا طابع جمالي بل هو ذو طابع أخلاقي وفلسفي.

مما يعني أن هذه الازدواجية اللغوية، ألقت بظلالها على طريقة التفكير ورؤية الواقع وطرائق التعامل معه، وليس بمعناها الايجابي كتعددية في الأفكار وتنوع الآراء، وإنما بمعنى التعدد الايديولوجي الذي يؤدي الى اصطفاف مجموعات كبرى ضمن البلد الواحد، وهو ما يؤدي الى انقسام مجتمعي يسعى فيه كل طرف الى عرقلة مجهودات طرف آخر . كمثل سفينة تضم ركابا تتعدد أفكارهم واعتقاداتهم، فيختار كل طرف منهم ربانا خاصا في السفينة، فيختار أحدهم مسلك الشرق، ويفضل الآخر منحى الغرب، وبذلك يتعطل السير، وربما يغرق المركب بمن فيه في نهاية المطاف.

2. الثقافة الجماهيرية من منظور علي عزت بيغوفيتش:

من ضمن الكتاب الذين قدموا ضبطا صريحا للفروقات بين ما يرتبط بالثقافة الأصيلة المتناغمة مع القيم، وما يتعلق بالثقافة الجماهيرية التي لا تكترث إلا بالكم، ولو كان على حساب القيم. نجد "علي عزت بيغوفيتش" الذي يقول أن: "موضوع أي ثقافة هو الإنسان: فردا أو شخصية، أي الفردية المتفردة التي لا تتكرر. أما موضوع الثقافة الجماهيرية وهدفها، فهو الجمهور أو الإنسان "الجمهور". يملك الإنسان روحا، أما الجمهور فلا شيء لديه سوى حاجاته. ومن ثم، فكل ثقافة هي تنمية للإنسان، بينما الثقافة الجماهيرية مجرد إشباع للحاجات.

ويبدو أن هناك تناغما في طرح المفكر علي عزت بيغوفيتش مع طرح المفكر مالك بن نبي، فيما يرتبط بالبعد الأخلاقي، الذي يتمحور حول تنمية الجانب الروحي للانسان، وبين مركزية الأخلاق في بلورة فعالية الثقافة، يقول مالك بن نبي: " الأخلاق وحدها تضمن وحدة المجتمع، وصيرورة المجتمع، ووظيفة المجتمع.

ويضيف علي عزت بيغوفيتش: " تنحو الثقافة تجاه الفردية، أما الثقافة الجماهيرية فتصب في الاتجاه المعاكس، نحو التماثل (صب الأرواح في قوالب متماثلة). عند هذه النقطة تنحرف الثقافة الجماهيرية عن الأخلاق وعن الثقافة. فالإنتاج بالجملة "للسلع الروحية"، والنسخ المكررة للأدب المزخرف الرخيص يؤديان إلى سلب الشخصية. إن الثقافة الجماهيرية تختلف عن الثقافة الأصيلة في أنها تحد من الحرية الإنسانية من خلال هذا الاتجاه نحو التماثل، ذلك لأن الحرية هي مقاومة التماثل.

يمكن أن نحدد هذ الفروق في الجدول الآتي:

معايير المقارنة	الثقافة (الأصيلة)	الثقافة الجماهيرية
الموضوع	الإنسان	الجمهور
مجال التنمية أو الإشباع	الروح	الحاجات
الهدف	تنمية الإنسان	إشباع الحاجات
محور التركيز	الفردية	التماثل" صب الأرواح في قوالب متماثلة"
النتائج	مقاومة التماثل	الحد من الحرية الإنسانية

المصدر: من اعداد الباحث

ما من شك فان الثقافة الجماهيرية مناسبة لتحقيق أجندات سياسية واقتصادية وحضارية، بحيث أن الترويج لها وتوسيعها عبر الفضاءات الإعلامية والتكنولوجية المتاحة يمكن من إعداد الأرضية المناسبة لتحقيق تعايش الفرد مع الوضع القائم في شتى المجالات، بما يكرس هيمنة أصحاب المصالح وعدم التفكير في تقديم البدائل المناسبة.

1.2 وسائل الاعلام كأدوات للتلاعب بالجماهير

يقول علي عزت بيغوفيتش: "ان ما يسمى بوسائل الاعلام الجماهيرية (كالصحافة والراديو والتلفزيون) هي في الحقيقة وسائل للتلاعب بالجماهير" وهذا اتهام مباشر لوسائل الاعلام بكونها متواطئة في تحقيق أجندات أخرى بعيدا عن أسطورة الموضوعية والحياد والخدمة المجتمعية. وفي هذا تكريس للوضع القائم في السياق المحلي وفي المشهد الدولي.

ان اللغة في الوجود أداة مطلقة، ولكنها في الاعلام وظيفة متحكمة، ويتجلى ذلك في السلطة التي تمارسها على المتلقي، فتجعله يدرك الأشياء بالطريقة التي تحددها له، سواء أكانت حقيقية أم مضللة. اذ تستخدم وسائل الاعلام تعبيرات مختلفة مثل " هزيمة بطعم الفوز" و " هزيمة مشرفة" وهي من قبيل التلاعب بالألفاظ الذي يؤثر في نفسية المتلقي وتجعله يتقبل الوضع ولا يسهم في تغييره، أو يكون سلبيا تجاهه، كما تسمي أشياء عديدة بغير مسمياتها فتسمي " العدوان" دفاعا عن النفس، وتطلق على التراجع والانسحاب " اعادة انتشار "، وتطلق على الخمر الذي يذهب بالعقل ويفتك بالصحة " مشروبات روحية"، وتصف الربا الذي ينخر اقتصاد الأمة ويكرس التباين الكبير بين الأغنياء والفقراء " فوائد "، وتنعت الاحتلال الظالم الذي يهلك الحرث والنسل ب "استعمار "

ومن الأمثلة الدالة على استفحال الفساد الاعلامي ما يشير اليه هذا الخبر من أبعاد مرتبطة بطرائق التأطير الاعلامي، وانتقاء جوانب بعينها سعيا لتزييف الوعي لدى المشاهد: " هاجم كلب شرس طفلا في حديقة في مدينة نيويورك. رأى أحد المارة ما حدث فهرع الى المساعدة، وانقض على الكلب الشرس وقتله. صحافي في إحدى الصحف المحلية في مدينة نيويورك شاهد ما حصل، وأخذ بعض الصور للحادثة ليضعها في الصفحة الأولى من الجريدة التي يعمل لها. اقترب الصحافي من الرجل وقال له: شجاعتك البطولية سوف تنشر في عدد يوم غد تحت عنوان: "شجاع من نيويورك ينقذ ولدا" أجابه الرجل الشجاع بأنه ليس من نيويورك. فقال له الصحفي: في هذه الحالة سوف نضع العنوان: شجاع أمريكي أنقذ ولدا من كلب شرس. أجابه الرجل الشجاع: أنا لست أمريكيا أيضا، أنا من باكستان. في اليوم التالي صدرت الصحيفة، وكان عنوان الخبر في الصفحة الأولى: " مسلم متطرف ينقض على كلب في حديقة في نيويورك ويودي بحياته ومكتب التحقيقات الاتحادي (FBI) بدأ التحقيق بإمكانيه وجود علاقة بين هذا الرجل ومنظمة القاعدة التي يرأسها أسامة بن لادن (ياسين، 2006، صفحة 63)

وفي توضيحه لسمات الانسان المعاصر وفقا لما تروم الثقافة الجماهيرية تحقيقه صياغة لتفكيره وتأثيرا في سلوكه. يقول علي عزت بيغوفيتش: " تتسم الثقافة الجماهيرية بحالة عقلية أشار اليها " يوهان هويزنجا" باسم الصبيانية. فقد لاحظ "هويزنجا" أن الانسان المعاصر يتصرف بطريقة طفولية –بالمعنى السلبي للكلمة، أي بطريقة تتفق مع المستوى العقلي للمراهقة: تسليات مبتذلة، غياب روح الفكاهة الأصلية، الحاجة الى أحداث مثيرة ومشاعر قوية، الميل الى الشعارات الرنانة والاستعراضات الجماهيرية، والتعبير عن الحب والكراهية بأسلوب مبالغ فيه، اللوم والمدح المبالغ فيهما وغير ذلك من العواطف الجماهيرية القاسية

2.2 تلبية الحاجات بدل تنمية الانسان

يشير بيغوفيتش الى البعد الروحي عند الانسان، والذي يمثل المحور الأساسي الذي تركز الثقافة على تنميته، وتتعهده برعايتها وعنايتها منذ اللحظات الأولى في حياته وصولا الى اخر لحظة يلفظ فيها أنفاسه.

ومن المتوقع أن نجد في كل ثقافة انماطا موجهة لتغذية الجانب الروحي عند الانسان تعينه على تحمل مشاق الحياة وتهيئه لحياة أخرى جديدة بهيئة مختلفة ساهمت في بلورتها مجهوداته في الارتقاء بأخلاقه في حياته الأولى.

ولكن انشغال وسائل الاعلام بمضامينها يتجه الى الجانب السيكولوجي اشباعا واستنزافا، محاولة اشباعه بتوظيف شبكة برامجية متعددة تحاصره من كل جانب، من غير تحقق بالاكتفاء، بل بطلب المزيد منها والحرص على تنويع البضاعة الاعلامية المعروضة عليه حتى لا يملها فينصرف عنها.

ومن جهة ثانية تستنزف هذه الثقافة الجماهيرية طاقاته العاطفية في التعايش مع واقع رمزي قد لا يمت للواقع بصلة، أو تجذبه لواقع مزيف يبتعد عن الموضوعية، الأمر الذي تجعله مستهلكا لطاقاته العاطفية ، متأثرا بمشهد مصطنع على حساب واقع فعلي يعايشه عن قرب، ويصاب بالجفوة نحوه.

يقول علي عزت بيغوفيتش: "تنظر سيكولوجية وسائل الاعلام الجماهيرية الى التلفزيون على الأخص باعتباره وسيلة، ليس لإخضاع الجانب الواعي في الانسان فحسب، بل الجوانب الغريزية والعاطفية، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة"

3.2 الانسان الجمهور مقابل الشخصية المتفردة

تروم الثقافة الجماهيرية التعامل مع جموع الناس ككتلة واحدة مقولبة بطريقة متماثلة، لكي يسهل قيادتها وتوجيهها في كل اتجاه تريدها الجهات النافذة سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

ولعل نزعة الإنسان الى التوافق الاجتماعي هي المنطلق الأساسي الذي يحقق من خلاله الاعلام مقصده في صناعة عقلية جماعية موحدة، وفق نمط واحد يتم رسم ملامحه بدقة في مخابر تشتغل لحساب جهات سياسية واقتصادية ذات مارب ايديولوجية وربحية ساعية للهيمنة على العالم بشكل انفرادي.

لقد سحب الانغماس الكبير للمتلقي في الفضاء الاعلامي معايشته للواقع الاجتماعي، ولذلك شكلت هذه الوسائل المنفذ الرئيسي للشعور بالانتماء الجماعي.

2.4الثقافة الجماهيرية ومهمة التقسيم الى منتج ومستهلكين

تتعمد وسائل الاعلام الجماهيرية – على ما يبدو–التركيز على نماذج معينة في مجالات مختلفة يتم تقديمها على أنها تتوفر على قدرات استثنائية، بحيث يتم تضخيمها والاعلاء من شأنها بين عامة الناس، على الرغم من أنها تروج لسلوكيات سلبية وتكسر الحاجز بين المتلقي والممنوعات الثقافية.

تنتقل الى المتلقي مشاهد افتراضية يتم تصويرها في فضاء الزمن الاعلامي لكي يستقبلها المتلقي واقعيا ضمن زمنه الاجتماعي، وهذا يعني توسيع دائرة الرداءة كميا، خاصة اذا كان المحتوى الغالب اعلاميا لا يخدم الثقافة وظيفيا. بحيث يقع الممثل في المحظور الثقافي أولا من خلال تصويره للمشاهد وفق السيناريوهات المعدة، ثم يطلب من المشاهد أن يستهلك جزءا معتبرا من زمنه الاجتماعي في متابعتها والاهتمام بها والنسج على منوالها.

الخاتمة

ان استدعاء أفكار المفكرين المهتمين بأوضاع المنطقة العربية والاسلامية، ينطوي على أهمية بالغة تسهم في توجيهنا إلى تحديد مكامن الخلل والتنبؤ بتداعياته والتماس سبل احتوائه.

وبما أن الأزمة حضارية في مجملها وثقافية في جوهرها، فإن الاعلام شريك أساسي في استمراريتها وعقبة في طريق معالجتها إذا بقي مصرا على محاكاة أدوار وظيفية مستوردة من أقطار تحقق لها ما لم يتحقق لغيرها.

أطروحات المفكر مالك بن نبي مهمة جدا، لأنه يجعلنا نستوعب الدور الاعلامي في سياقه الحضاري، وبالتالي ضرورة مراجعة مضمونه وأدائه بما يتوافق مع التطلعات الحقيقية الراهنة للمجتمع من الناحية الفكرية والسلوكية، سواء أكان ذلك على المستوى الفردي أو الجماعي.

واجتهادات المفكر علي عزت بيغوفيتش في مجال الثقافة الجماهيرية تحديدا، مهمة جدا لأنها تتميز بالوضوح ، وتنطلق من معرفة راسخة بالخلفيات المعرفية الغربية التي توجه الممارسة التطبيقية الإنسانية عموما.

لعل القاسم المشترك في إسهامات المفكر بن نبي والمفكر بيغوفيتش، والتي تعنينا في سياق هيمنة الثقافة التي توصف بالجماهيرية، هو استعادة الارتباط بين القيم الأخلاقية والممارسة الاعلامية، بحيث تكون الأولى بمثابة البوصلة التي تحدد مسار الثانية، وتمنعها أولا من التورط في الممنوعات الثقافية والمضي قدما في الارتقاء بالوعي المجتمعي ثانيا.

مراجع البحث

1. الحميد ,م .ع .(2019) .*نظريات الاعلام واتجاهات التأثير* .القاهرة :عالم الكتب.
2. الخوري ,ن .(2005) .*الإعلام العربي وانحيار الساطات اللغوية* .بيروت :مركز الدراسات اللغوية.
3. بيغوفيتش ,ع .ع .(2019) .*الاسلام بين الشرق والغرب* .القاهرة :دار الشروق.
4. نبي ,م .ب .(2015) .*شروط النهضة* .بيروت :دار الفكر المعاصر.
5. نبي ,م .ب .(2015) .*مشكلة الافكار* .بيروت :دار الفكر العربي.
6. نبي ,م .ب .(2015) .*مشكلة الثقافة* .بيروت :دار الفكر العربي.
7. ياسين ,ص .(2006) .*الاعلام النسق القيمي وهيمنة القوة* .بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.